الحِلَّة في عهد دولة الخروف الأسود
(القرة قوينلو) ٨١٤/٨٧٤هـ

م. د. عبَّاس حسن عبيِّس الجبوريّ
مديريَّة تربية بابل

Hillah during the Reign of the Black Sheep State (Qara Qoyunlu) 814/874 A.H

Dr. Abbas Hassan Aobis Al-Jubouri
Babylon Education Directorate

ملخَّص البحث

شـهدت مدينـة الحِلَّة خلال عهـد دولة الخـروف الأسـود (٨١٤-٨٧٤هـ) جملة من الصِّـراعات السياسـيَّة والنزاعات العسـكريَّة التي كانت المدينة مِن أهمِّ سـاحاتها، وانعكسـت هذه الأحداث وآثارها على المدينة وسـكَّانها بشـكلٍ كبيرٍ، وعانت فيها من ويلات الحروب، وما نتج عنها من آثار انعكسـت سـلبًا على أحوال المدينة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّـة، ومـن ثـمَّ، درس هـذا البحـث طبيعـة هـذه الصِّـراعـات والنزاعات، وما تركته من آثار ونتائج على المدينة وسكانها لمدَّة تزيد على النصف قرن.

Abstract

During the reign of the Black Sheep State (814-874 AH), the city of Hillah witnessed a series of political conflicts and military disputes in which the city was one of the most important arenas. These events and their effects were greatly reflected on the city and its inhabitants. During these events, the city suffered from the ravages of war and the resulting effects that negatively affected the city's economic and social conditions. Therefore, this research studied the nature of these conflicts and disputes and the effects and results they left on the city and its inhabitants for a period of more than half a century.

المقدِّمة

عانت مدينة الحِلَّة الفيحاء، على مدى قرون عدَّة، من كونها مسرحًا للصراعات والنزاعات السياسيَّة التي كانت شبه دائمة في العراق بين الإمارات والدول المختلفة التي تعاقبت على حكم البلاد، ولعلَّ ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى ما انمازت به هذه المدينة من أهميَّة سياسيَّة واقتصاديَّة وثقل سكَّانيّ، حتَّى أصبحت محطَّ أنظار الحكومات والسلطات المختلفة التي حكمت العراق.

ومن بين تلك العهود التي مرَّت بها المدينة، عهد دولة القرة قوينلو الذي امتدَّ على فترات متفاوتة ما بين عامَي (٨١٤-٨٧٤هـ)، شهدت جملة من الصراعات السياسيَّة والنزاعات العسكريَّة، التي كانت مدينة الحِلَّة من أهمِّ ساحاتها، وانعكست هذه الأحداث وآثارها على المدينة وسكَّانها بشكلٍ كبير.

درس هذا البحث هذه الصراعات والنزاعات، وما تركته من آثار ونتائج على المدينة وسكَّانها لمدَّة تزيد على نصف قرن، وقد قُسِّم البحث على مقدِّمة وثلاثة مباحث، تعقبها خاتمة، درس المبحث الأوَّل أصول القرة قوينلو، وبدايات سيطرتهم على مدينة الحِلَّة، في حين تناول المبحث الثاني الصراع الجلائريّ القرة قوينلي وانعكاساته على مدينة الحِلَّة للمدَّة (٨٣٥-٨٥٧هـ/ ١٤٣١-١٤٥٣م)، واوضح المبحث الثالث الصراع بين القرة قوينلو وإمارة المشعشعين، ثمَّ نهاية دولة القرة قوينلو عام ٨٧٤هـ.

المبحث الأوَّل

سيطرة القرة قوينلو على مدينة الحِلَّة

أوَّلًا: القرة قوينلو أصولهم وبدايات حكمهم

القـرة قوينلـو أو الخـروف الأسـود، هم إحـدى القبائـل التركمانيَّـة المتفرِّعة من الأتراك (الغز) الذين يرجع أصلهم إلى (أوغوز) البطل الأسـطوريّ عند الترك، كانت تقطـن مناطق تركسـتان الغربيَّـة قبـل أن يضطرَّها الاجتيـاح المغـوليّ إلى النزوح نحو الغـرب في مناطق أذربيجان وشرق الأناضول، واسـتقرُّوا فيها، عُرِفـوا بالقرة قوينلو، أي الخـروف الأسـود؛ لاهتمامهـم بتربيـة هذا النـوع من الأغنـام، ولوجـود صورها عـلى راياتهـم[1]، وكذلـك تُطلق عليهم تسـمية البارانيَّة نسـبةً إلى (بـاران) أحد أحفاد أوغوز[2].

اتَّحدت هذه القبائل فيما بينها، وتمكَّنت من مدِّ مناطق نفوذها واستيلائها على مناطق عدَّة في جنوب غرب آسـيا، كشرق الأناضول، وأجزاء مـن العراق وإيران وأذربيجان والقفقاس، وأسَّسـت دولة عُرِفت بدولة الخروف الأسود، وكان أمراؤهم الأوائل من أتبـاع الجلائريِّين في بغـداد وتبريـز، إذ كان جدُّهم (بيرام خواجة) في خدمة السـلطان

(١) علاء محمود قدَّاوي، تاريخ العراق في عهدَي القرة قوينلو والآق قوينلو (٨١٤-٩١٤هـ/ ١٤١١-١٥٠٨م)، دار غيداء، عمان، ٢٠١٢م، ص٣٠-٣١.

(٢) عبَّاس العزَّاوي، موسـوعة تاريخ العـراق بين احتلالَين، الدار العربيَّة للموسـوعات، بغداد، ٢٠٠٤، مج٣، ص٢٧.

أويس الجلائريّ، تمكنَّوا بعد صراعٍ دامٍ مع الدولة الجلائريَّة من تأسيس دولتهم في تبريز سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م، وهم من أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام[١].

ويعدُّ الأمير قرة يوسف بن قرة محمَّد بن بيرم خجا المؤسِّس الحقيقيّ لدولة القرة قوينلو، والذي تولَّى الحكم بعد وفاة أبيه سنة (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م)، وهو من أبرز أمراء القرة قوينلو، استولى على عراق العرب والعجم، ثمَّ ملك تبريز وبغداد وماردين وغيرها، إذ وسَّع مناطق نفوذه، وقُدِّر عدد أتباعه ما بين ثلاثين ألف وأربعين ألف مقاتل[٢].

تحالف قرة يوسف مع السلطان أحمد بن أويس الجلائريّ الذي كان زوجًا لأخته، وشارك معه في حروبه ضدَّ التيموريِّين سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، واستغل الطرفان توجُّه التيموريِّين إلى الأناضول، فدخلا العراق ليستقرَّ قرة يوسف في بادية هيت، وتوجَّه أحمد الجلائريّ إلى بغداد، فاستعادها من التيموريِّين، غير أنَّ الوضع لم يستمرَّ طويلًا، إذ سرعان ما عاد التيموريِّين لبغداد؛ فانهزم أحمد الجلائريّ إلى منطقة الأهوار، وبقي حتَّى توجَّه التيموريِّين مجدَّدًا لمهاجمة الأناضول، فعاد إلى بغداد[٣].

وضع السلطان أحمد ابنه الأمير طاهر حاكمًا على الحِلَّة، والذي سرعان ما تمرَّد على أبيه، فقرَّر السلطان أحمد مهاجمة المدينة، ووجد أن لا قِبَل له على مواجهة المتمرِّدين، فطلب العون من قرة يوسف، الذي سارع إليه من هيت مع قوَّات عسكريَّة، ثمَّ

(١) جميل أبو طبيخ، مذكِّرات بغداد- مراجعة في تاريخ الصراع الطائفيّ والعنصريّ ٦٧٢م-٢٠٠٧م، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠٠٨، ص٦٦.

(٢) السخاويّ، شمس الدين محمَّد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مطبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م، ج ٦، ص٢١٦-٢١٧.

(٣) بيداء عليوي هادي، الحِلَّة في العهد الجلائري (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م-٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)، رسالة ماجستير مقدَّمة إلى كليَّة التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٩، ص٣٨.

عـبرا النهـر وواجهـا قـوَّات الأمير طاهـر، وحدثـت معركة كبـيرة بـين الطرفَين عام (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، هُزِم على إثرها الأمير طاهر الذي قُتِـل خلال فراره من المعركة، بعد أن غرق خلال محاولته عبور أحد الأنهار[١].

لم تَـدُم حالة الوفاق بين السـلطان أحمد والأمير قرة يوسـف، إذ سرعان ما انقلب الأخير على السـلطان أحمد بعد اختلافهـما على توزيع الغنائم، وهاجـم مقرَّه في بغداد، فاضطرَّ السـلطان أحمد إلى الهرب إلى الشـام، وأصبحت بغداد والحِلَّة تحت سـيطرة قرة يوسـف لمدَّة ثلاثة أشـهر[٢]، هاجمت بعدها قوات التيموريِّين بقيادة أبي بكر بن ميرزاده ميرانشـاه ابن تيمورلنك مدينة الحِلَّة، وجرت بينها وبين قوَّات قرة يوسـف معركة نهر الغنـم بالقرب من المسـيَّب (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)[٣]، تمكَّنت فيها مـن هزيمة قوَّات قرة يوسـف الذي انسحب هاربًا إلى الشـام، حيث أُلقي القبض عليه، وسُجِن مع السلطان أحمـد الجلائـريّ، فتصالحـا واتَّفقا على تقاسـم مناطق السـلطة والنفـوذ بينهما في حال خروجهما من السـجن، فتكون أذربيجان لقرة يوسـف، والعراق لأحمد الجلائري، إلَّا أنَّهما سرعان ما عادا إلى الصراع والتنافس بعد إطلاق سراحهما[٤].

ثانيًـا: سيطـرة القـرة قوينلـو علـى مدينـة الحِلَّـة للمـرَّة الأولى ٨١٤-٨٢٦هـ

عاد السـلطان أحمد إلى العراق بعد وفاة تيمور سـنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، واستعاد

(١) يوسف كركوش، تاريخ الحِلَّة، المكتبة الحيدريَّة، النجف الاشرف، ١٤٣٠هـ، ج١، ص١٢٢.
(٢) فاطمـة حسـين فاضل المفرجـي، الحِلَّة في عهـد الآق قوينلـو(١٤٦٨-١٥٠٨)، مجلَّـة الملويَّة للدراسات الآثاريَّة والتاريخيَّة، المجلَّد٤، العدد ٨، السنة الرابعة، حزيران ٢٠١٧م، ص٢٥٨.
(٣) جاسـم حسـين مهاوي، تاريخ الغـزو التيموريّ للعراق والشـام وآثاره السياسـيَّة (١٣٨٥-١٤٠٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٦م، ص٩٠.
(٤) علاء محمود قدَّاوي، تاريخ العراق في عهد القرة قوينلو والآق قوينلو، ص٦٦.

سيطرته على بغداد، وبقي فيها حتَّى مقتله خنقًا على يد أتباع الأمير قرة يوسف سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م)، فتولَّى الحكم بعده ابن أخيه شاه ولد، ولم يستمر حكمه طويلا[١]، إذ دبَّرت زوجته دوندي مكيدة وقتلته، فتمكَّن القرة قوينلو من مدِّ نفوذهم وسيطرتهم إلى العراق، فاحتلُّوا بغداد عام ١٤١٠/ ٨١٤هـ[٢].

مدَّ القرة قوينلو نفوذهم إلى مدينة الحِلَّة وبقيَّة مدن العراق الأخرى، إلَّا أنَّ الأوضاع في الحِلَّة اضطربت وساءت، لاسيما مع انتشار وباء الطاعون فيها، ومن ثمَّ أصبحت المدينة مطمع للقبائل المحيطة بها، فسارع زعيم خفاجة (عذرا بن عليّ بن نعير آل فضل) للاستيلاء على المدينة، وتمكَّن من احتلالها، فهرب أهالي المدينة في حالة من الذعر والخوف، فغرق الكثير منهم في محاولتهم عبور شطِّ الحِلَّة إلى ضفته الأخرى، وبقيت المدينة تحت سيطرة قبيلة خفاجة لمدَّة سبعة أشهر، دون تمكُّن الأمير شاه محمَّد ابن قرة يوسف، حاكم بغداد القرة قوينلي آنذاك، من إبعاد القبيلة عن المدينة، ولاسيما أنَّ دولته كانت تمرُّ بمرحلة ضعف، بعد موت مؤسِّسها قرة يوسف سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م[٣].

وفي هذه المدَّة شهدت مدينة الحِلَّة تواصل عدد من أعيانها مع بعض الأمراء القريبين من الأمير شاه محمَّد، فضلًا عن بعض أعيان بغداد وبعقوبة، كان الهدف منها

(١) ابن حجر العسقلانيّ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عليّ، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة لجنة إحياء التراث العربيّ الإسلاميّ، القاهرة، ١٩٩٨م، ج٣، ص٢٣٠، السخاويّ، الضوء اللامع، ج ٦، ص٢١٧.

(٢) بحرية أوج، النساء الحاكمات في التاريخ، ترجمة: إبراهيم الداقوقيّ، مطبعة السعدون، بغداد، ١٩٧٣م، ص١٣٣.

(٣) المقريزيّ، أبو العبَّاس أحمد بن عليّ بن عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٩٩٧ م، ج٤، ص٨٧٦، العسقلانيّ، أنباء الغمر بأنباء العمر، ج٣، ص١٤٦، يوسف كركوش، تاريخ الحِلَّة، ج١، ص١٢٥.

الإطاحة بالأمير وذلك بالاستعانة بالجلائريِّين، إلَّا أنَّ شاه محمَّد اكتشف المؤامرة، وألقى القبض على المشتركين فيها سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م، ومنهم عدد من أقاربه وقادة الجيش، وقتلهم، وكان بينهم من مدينة الحِلَّة السيِّد فخر الدين الأعرج، وناصر الدين ابن الخواجة مخزوم، وأخوه عليّ[١].

لم ينتهِ دور الجلائريِّين في هذه المدَّة، بل سرعان ما أعادوا تجميع قواهم، لاسيما بعد تولِّي السلطان أويس الثاني بن شاه ولد حكم الدولة الجلائريَّة في تستر سنة ٨١٨هـ، فاستلم الحكم، وقضى سنوات حكمه الأولى في مواجهة هجمات التيموريِّين على مناطق الدولة الجلائريَّة، وبعد تمكُّنه من تقليل خطر هذه الهجمات، قرَّر إعادة مناطق سيطرة ونفوذ الدولة الجلائريَّة، لاسيما في العراق، تحويل عاصمة مُلكه إلى مدينة الحِلَّة[٢].

أسند السلطان أحمد مهمَّة استعادة السيطرة على بغداد والحِلَّة إلى أخيه السلطان (محمَّد بن شاه ولد)، الذي قاد قوَّة عبر واسط باتِّجاه الحِلَّة سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)، فدخلها دون مضايقة ومقاومة من حاكم الحِلَّة الأمير أدرسون، الذي وجد أن لا قِبَل له على مواجهة الجلائريِّين، ففضَّل الهرب والتوجُّه إلى تبريز[٣]، فدخل أويس المدينة سنة ٨٢٦هـ، وعمل على تنظيم الأوضاع فيها، واتَّخذ تاج الدين بن حديد، وهو من أبناء المدينة، وزيرًا له، واتَّصل بزعماء العشائر المجاورة للمدينة، وحصل على دعمهم وتأييدهم له في عزمه على إسقاط حكومة القرة قوينلو في بغداد[٤].

(١) يوسف كاظم جغيل، الحياة الفكرية في الحِلَّة خلال القرن التاسع الهجريّ، أطروحة دكتوراه مقدَّمة إلى كليَّة التربية، جامعة القادسية، ٢٠٠٨م، ص٤٧.
(٢) بيداء عليوي هادي، الحِلَّة في العهد الجلائري، ص٤١.
(٣) شعبان طرطور، الدولة الجلائريَّة، دار الهداية، سوهاج، ١٩٨٥، ص٤٩-٥٠.
(٤) يوسف كركوش الحِلّيّ، تاريخ الحِلَّة، ج١، ص١٢٥-١٢٦.

عمـل أويـس الثاني على تحشـيد قوَّاته، وهاجم بغداد سـنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)، وحـاصر قـوَّات القـرة قوينلـو فيها، ثمَّ اشـتبك مـع قوَّات الأمـير جهان شـاه الذي كان منسـحبًا مـن المدينـة مـع قوَّاته، بعـد خلاف بينـه وبين أخيـه الأمير شـاه محمَّد، وفي هـذا الاشـتباك قُتِـل السـلطان أويـس الثـاني، فانسـحبت قوَّاته وتركـت حصار بغداد[1].

(١) يونـس عبَّاس نعمة، وميثاق عبيس حسـين، الأوضاع السياسـيَّة والاقتصاديَّـة للحِلَّة في عهد الدولة التركمانيَّة (٨١٤هـ/ ١٤١١م-٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، مجلَّة مركز بابل للدراسات الإنسانيَّة، المجلَّد ٥، العدد ١، ص١١٩.

المبحث الثاني

الصراع الجلائريّ القرة قوينلي وانعكاساته على مدينة الحِلَّة (٨٣٥-٨٥٧هـ/ ١٤٣١-١٤٥٣م)

أوَّلًا: نهاية حكم الجلائريِّين وتولِّي الأمير أسبان الحكم

تولَّى السلطان حسين الثاني ابن علاء الدولة الحكم في مدينة الحِلَّة الفيحاء خلفًا لأويس الثاني يوم الجمعة العاشر من شعبان سنة ٨٢٧هـ، وكان أويس قد استدعاه قبل وفاته بأربعة أشهر؛ لعدم وجود من يرث حكمه، ثمَّ تمكَّن السلطان حسين الثاني من مدِّ نفوذه إلى مناطق أخرى كالبصرة وواسط وغيرها، وقاربت مدَّة حكمه ما يقارب سبع سنوات، استوزر ثلاثة وزراء من أهالي الحِلَّة، وهم عبد الكريم بن نجم الدين، من النيل، الذي توفِّي سنة ٨٣٠هـ، وبعده شخص اسمه شهاب الدين، الذي لم يكن مؤيِّدًا للجلائريِّين، وعارض السلطان حسين؛ فشنقه الأخير، فتسلَّم الوزارة بعده أخوه نظام الدين[١].

لم تكن سيرة السلطان حسين جيِّدة مع الأمراء والرعيَّة، واشتهر بسوء إدارته وتعدِّيه على حرمات الكثيرين، ووُصِف بالفسق والفجور والظلم والانحراف عن الشريعة، ممَّا أثار غضب الأمراء والجيش والرعيَّة على حدٍّ سواء[٢].

(١) الغيَّاثيّ، عبد الله بن فتح الله، التاريخ الغيَّاثيّ، تحقيق: طارق الحمدانيّ، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٥م، ص١٤٤.

(٢) يوسف كاظم جغيل، الحياة الفكريَّة في الحِلَّة خلال القرن السابع الهجريّ/ الخامس عشر=

عمل السلطان حسين على الاستعداد لمواجهة حكومة القرة قوينلو في بغداد، التي كانت تحت حكم الأمير أسبان بن قرا يوسف، إلَّا أنَّ سوء إدارته وغضب بعض قادته وأمراء جيشه، ومنهم أمير خليل وأمير يار عليّ، وغيرهم، من تصرُّفاته، دفعتهم للاتِّصال والتراسل مع الأمير أسبان الذي هاجم الحِلَّة، والتقى الطرفان في منطقة السيب القريبة من الحِلَّة، وتمكَّن السلطان حسين من هزيمة قوات أسبان الذي اضطرَّ إلى الفرار إلى شمال العراق، حيث عمل على تجميع قوَّات جديدة، وتحالف مع بعض الأمراء الموجودين في الموصل وأربيل، وهاجم مدينة الحِلَّة مرَّة أخرى عام ٨٣٥هـ[١]، وحاصر السلطان حسين داخل المدينة لمدَّة سبعة أشهر، عانى فيها أهالي الحِلَّة الكثير، إذ يذكر الغيَّاثيّ في تاريخه: «وكان الحصار في أيَّام الحصاد، ولم يدخل إلى البلد شيء من الغلَّة، فوقع الجوع فيهم، حتَّى أكلوا الكلاب والسنانير، وبلغ التغار الحنطة إذا خبز إذ ذاك قوم باثني عشر ألف دينار، ونفدت الدواب والحمير، حتَّى كاد الناس يأكلون بعضهم بعضًا، فعند ذلك أشار عليه الأمراء أن يصالح أسبان ويعطيه البلد»[٢]. ونتيجة لذلك، ولضغط الأمراء وقادة العسكر عليه، اضطرَّ السلطان حسين إلى طلب الأمان من أسبان، والاستسلام له، فتمكَّن أسبان من دخول المدينة وإنهاء حكم الدولة الجلائريَّة فيها[٣].

قَبِل أسبان بذلك، واستسلم السلطان حسين له، إلَّا أنَّ أسبان عمل على صنع

=الميلاديّ، الحِلَّة، مطبعة دار الصادق، ط١، ٢٠١٠م، ص٧٨، بيداء عليوي هادي، المصدر السابق، ص٤٦-٤٧.

(١) ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م، ج٧، ص٢١٣، يوسف كركوش الحِلِّيّ، تاريخ الحِلَّة، ج١، ص١٢٦-١٢٧.

(٢) الغيَّاثيّ، التاريخ الغيَّاثيّ، ص٢٦٣.

(٣) العزَّاويّ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلَالَين، مج٣، ص٨٤-٨٥.

مكيدة أراد بها قتل السلطان حسين، فاتَّفق مع بعض الحرَّاس على تسهيل هروبه، ومن ثمَّ أرسل من ألقى القبض عليهم، وقتل السلطان حسين خنقًا في الثالث من صفر سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)، وبمقتله انتهى وجود الدولة الجلائريَّة[١].

ثانيًا: الحِلَّة في عهد القرة قوينلو للمرَّة الثانية ٨٣٥-٨٥٧هـ

عمل الأمير أسبان بعد سيطرته على مدينة الحِلَّة إلى مدِّ نفوذه إلى بغداد، فهاجمها عام ٨٣٦هـ، فهرب حاكمها الشاه محمَّد إلى الموصل، وأصبح العراق تحت حكم الأمير أسبان، الذي رحل إلى ضواحي الحِلَّة سنة ٨٤١هـ، بعد انتشار وباء الطاعون في بغداد، وبقي فيها مدَّة من الزمن، ثمَّ عمل على مدِّ نفوذ دولته على بقيَّة مناطق العراق، فخاض عدَّة صراعات مع المشعشعين في جنوب العراق، وأرسل عدَّة حملات عسكريَّة ضدَّهم، قاد بعضها بنفسه، إلَّا أنَّه لم يتمكَّن من القضاء عليهم[٢].

وفي عهد الأمير أسبان هذا جرت مناظرة علميَّة بين علماء الطوائف الإسلاميَّة، وكان الشيخ ابن فهد الحِلِّيّ الأسديّ ممَّن ناظر فيها عن مذهب أهل البيت عليهم السلام، وتمكَّن بالحجج والبراهين من إفحام مناظريه؛ فتأثَّر الأمير أسبان كثيرًا، واعتنق المذهب الشيعيّ، وأصبح موالِيًا لآل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، وقد ألقى خطبة الجمعة باسم أمير المؤمنين وأولاده المعصومين عليهم السلام، وسكَّ النقود بأسماء الأئمَّة الاثني عشر عليهم السلام، توفِّي الأمير أسبان سنة ٨٤٨هـ بعد إصابته بمرض أدَّى إلى وفاته[٣].

تولَّى الأمير الوند بن إسكندر الحكم خلفًا لعمِّه أسبان، فبدأت مرحلة جديدة من

(١) ابن حجر العسقلانيّ، أنباء الغمر بأنباء العمر، ج٣، ص٤٨٤-٤٨٥.
(٢) الغيَّاثيّ، التاريخ الغيَّاثيّ، ص٢٧٠، علاء محمود قدَّاوي، تاريخ العراق في عهد القرة قوينلو والآق قوينلو، ص٨٧.
(٣) محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، ج٦، دار التعارف، بيروت، د.ت، ج٣، ص١٤٧.

المنافسة بين أفراد الأسرة والأمراء حول السلطة في بغداد، إذ كانت وصيَّة أسبان بأن يخلفه ابن أخيه الأمير الوند بن إسكندر، وعدم تولية ابنه فولاذ؛ لصغَر سنِّه[١].

دعا أمراء القرة قوينلو الأمير الوند بالحضور إلى بغداد؛ ليتمَّ تنصيبه بحسب وصيَّة عمِّه، وكان الوند وقتها حاكمًا على الحِلَّة، إلَّا أنَّ الأمراء سرعان ما تنكَّروا لوصيَّة أسبان، وقرَّروا تنصيب ولده فولاذ خلفًا لـه؛ خوفًا من تعرُّض مصالحهم وامتيازاتهم للخطر، إذا تولى الوند مقاليد الحكم، لاسيما وأنَّ فولاذ صغير السنِّ، وسيكون أفضل انقيادًا وطاعةً لهم[٢].

إنَّ عمليَّة رفض الأمراء للوند لم تمرّ مرور الكرام، فأخذ الأخير يحشد الأعوان والأنصار، وضمَّ إليه قوَّات من أعوانه في كركوك وأربيل والموصل، وسار بهم نحو بغداد؛ لفرض سلطته عليها بالقوَّة، وتمكَّن أوَّل الأمر من هزيمة القوَّات التي خرجت من بغداد لقتاله، إلَّا أنَّ الأمراء سرعان ما أعادوا ترتيب قوَّاتهم، وهاجموا الوند في غفلة من أمره، فانهزمت قوَّاته، فرجع هاربًا إلى مقرِّ حكمه في الحِلَّة[٣]، عندئذٍ قرَّر الأمير جهان شاه بن قرة يوسف، حاكم القرة قوينلو في تبريز، أن يضع حدًّا لهذه الانقسامات بين أولاد إخوته وأمراء بغداد، فسار إليهم على رأس جيش كبير، فلم يجد أمراء بغداد بدًّا من مصالحة الأمير الوند، فجاؤوا به من الحِلَّة، واستقرَّ مع أتباعه في الجانب الغربيّ من بغداد، ثمَّ تداولوا في ما بينهم الموقف الحرج الذي آلت أليه أمورهم، وضرورة توحيد الجهود ضدَّ عمِّهم الأمير جهان شاه، واشترط الأمير الوند أن ينصِّبوه حاكمًا عليهم بحسب وصيَّة عمِّه، لكنَّ الأمراء رفضوا الطلب، ذلك فعاد إلى الحِلَّة خائبًا[٤].

(١) المقريزيّ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٨٧٦.
(٢) علاء محمود قدَّاوي، تاريخ العراق في عهد القرة قوينلو وال‌ق قوينلو، ص٨٩-٩٠.
(٣) العزَّاويّ، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالَين، مج٣، ص١٣٤.
(٤) بيداء عليوي هادي، المصدر السابق، ص٥١.

وفي أثناء ذلك وصل جيش الأمير جهان شاه إلى أسوار بغداد، وفرض الحصار على المدينة أواخر سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م)، ومن سياق الأحداث يبدو أنَّ الأمير الوند أصبح في موقف لا يحسد عليه، فقد يئس من إمكانيَّة التفاهم مع أمراء بغداد، فضلًا عن تخوُّفه من وصول عمِّه إلى المدينة، فقرر الانسحاب من الحِلَّة والنأي بنفسه عن هذا الصراع، وأن يأخذ طريقه إلى الشام لاجئًا فيها[١]، ولكنَّ الأمير جهان شاه علم بحراجة موقف ابن أخيه، وأراد أن يتقوَّى به، ومن ثمَّ راسله وأخذ يطمئنه ويغريه بالتعاون معه ضدَّ المتمرِّدين، ووعده بإعطائه الجانب الغربيّ من بغداد، فضلًا عن الحِلَّة، وقد أبدى الوند تردُّدًا في قبول عروض عمِّه، ولكن بعد أن دخل في بغداد سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م) بعد حصار استمرَّ أكثر من ثلاثة أشهر، لم يجد الأمير الوند بدًّا من الاستجابة لدعوات عمِّه، فقدِم إلى بغداد، وعيَّنه جهان شاه حاكمًا على الجانب الغربيّ منها مثلما وعده، وهكذا وُضِعَت مدينة بغداد تحت إدارتَين مستقلَّتَين، إحداهما للجانب الغربيّ، والأخرى للجانب الشرقيّ[٢].

ويبدو من سياق الحوادث أنَّ الأمير الوند قد ترك على حكم الحِلَّة أحد الأمراء، وهو الأمير بسطام، الذي اشترك في التصدِّي لهجمات المشعشعين على مدن الفرات الأوسط سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣ م)، وحشد فيها الجند تحسُّبًا لأيِّ هجوم قد يشنُّه المشعشعون، ولكن هذه الاستعدادات ما كانت تحول دون مهاجمة المشعشعين للمدينة مرَّة أخرى[٣].

(١) ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب، ج٧، ص٢١٣، المقريزيّ، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٤، ص٨٧٧.
(٢) الغيَّاثيّ، التاريخ الغيَّاثيّ، ص٢٨٢.
(٣) عليّ شاكر عليّ، العراق والغزو القرة قوينلو في القرن الخامس عشر، مجلَّة المؤرِّخ العربيّ، العدد ٢٨، السنة ١١، بغداد، ١٩٨٦، ص١٣١-١٣٢.

المبحث الثالث

الصراع مع المشعشعين ونهاية القرة قوينلو ٨٥٧-٨٧٤هـ

أوَّلًا: الصراع مع الإمارة المشعشعيَّة

إنَّ حسم الصراع على الحِلَّة لصالح القرة قوينلو لم يؤدِّ إلى تثبيت حكمهم عليها، إذ إنَّ هذا الحكم ظلَّ قلقًا وهشًّا، فما أن انتهوا من القضاء على الحكم الجلائريّ، حتَّى صار عليهم أن يواجهوا خصمًا جديدًا ينازعهم السيادة على الحِلَّة منذ منتصف ذلك القرن، تمثَّل الخصم الجديد بالأمارة المشعشعيَّة التي تزعَّمها محمَّد بن فلاح المشعشع.

ظهرت هذه الإمارة في منطقة الأحواز وجنوب العراق، إذ تمكن محمَّد المشعشعيّ، الذي ادَّعى المهدويَّة، ونزح إلى الأحواز، بعد أن جابهه العلماء، وفنَّدوا ادِّعاءاته الباطلة، من استقطاب جموع العشائر الساكنة على الحدود العراقيَّة الإيرانيَّة، ومنهم بنو تميم، وعبادة، وبني لام، والرزنان، والسودان، والسواعد، وغيرهم، مؤسِّسًا إمارة قويَّة الشكيمة، اتَّخذ الحويزة سنة ٨٤٠هـ مقرًا لها، ثمَّ سعى لمدِّ نفوذه على مدن العراق الجنوبيَّة، التي كانت بيد الجلائريِّين، وإخراج القرة قوينلو من العراق[١].

تمكَّن المشعشعون من بسط سيطرتهم على مدن العراق الجنوبيَّة باستثناء البصرة، ثمَّ اتَّجهوا شمالًا نحو واسط وبغداد، ودخلوا في صراع مع القرة قوينلو حول الحِلَّة ومدن

(١) جاسم حسن شبَّر، تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٥، ص١٤-٢٤.

الفرات الأوسط، لكنَّ القرة قوينلو تمكَّنوا من صدِّ هجماتهم في واسط، ولاحقوهم حتَّى مقرِّ إمارتهم، إلَّا أنَّهم لم يتمكَّنوا من القضاء عليها، إذ سرعان ما تجدَّدت الصراعات العسكريَّة بين الطرفَين بعد بروز شخصيَّة المولى عليّ بن محمَّد المشعشعيّ، الذي أصبح الحاكم الفعليّ للأمارة، وقاد عدَّة هجمات على بغداد والحِلَّة سنة ٨٥٧هـ، ودخل النجف وارتكب فيها مجازر كبيرة، ونهب محتويات مرقد الإمام عليّ عليه السلام[١].

قرَّر القرة قوينلو مواجهة المشعشعين، فأرسلوا قوَّة عسكريَّة من بغداد يقودها الأمير ديوه بيك، وانضمَّت لها قوَّة أخرى من الحِلَّة بقيادة حاكم الحِلَّة الشحنة بسطام، واشتبكت مع قوَّات المولى عليّ قرب الكوفة، إلَّا أنَّ هذه القوَّة خسرت أمام المشعشعين، ولم ينجُ من تلك الجيوش سوى عدد قليل، في مقدِّمتهم ديوه بيك قائد عسكر بغداد، الذي فرَّ من ساحة المعركة، على حين تراجع الأمير بسطام وأتباعه، وانسحب باتِّجاه الحِلَّة مع عدد قليل ممَّن بقي من قوَّاتهما[٢].

لاحق المشعشعيُّون القوَّات المنهزمة التي لجأت إلى الحِلَّة، والتي سرعان ما تركت المدينة بعد أن وجد قادتها أن لا قِبَل لهم على مواجهة المشعشعين، فانسحبوا من المدينة ومعهم جزء كبير من سكان المدينة، بمن فيهم النساء والأطفال، باتِّجاه بغداد، فمات الكثير منهم في أثناء عبور الفرات غرقًا، ومات آخرون من الجوع والعطش؛ لأنَّهم غادروا المدينة دون التزوُّد بالطعام، فضلًا عن التعب وشدَّة البرد، ووصف الغيَّاثيّ ذلك الانسحاب بقوله: «.. وتوجَّه بسطام شحنة الحِلَّة وجميع أهل الحِلَّة إلى بغداد، الذي قدر على مركوب ركب، والباقي رجَّالة، الرجال والنساء والأطفال، بحيث هلك منهم خلق كثير، بعضهم من التزاحم على العبور من شطِّ الحِلَّة، وبعضهم في

(١) عبَّاس العزَّاوي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالَين، مج٣، ص١٤٦.

(٢) عبد الأمير الرفيعيّ، العراق بين سقوط الدولة العبَّاسيَّة وسقوط الدولة العثمانيَّة، مكتبة بستان المعرفة، بغداد، ٢٠١٠، ص٢٢٦.

الطريـق من التعب والجوع والعطـش، فإنَّهم خرجوا بغير زاد، ولكن من لطف الله على عبـاده أنَّه كان الفصل باردًا، فإنَّـه كان في ٣ تشرين الثاني، فلو كان حرًّا ما نجا منهم إلَّا قليل»[١].

وبعد دخول المولى عليّ إلى الحِلَّة سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، قام بارتكاب المجازر فيها، إذ أمر بقتل كلِّ من وُجِد فيها، وأمر بتخريبها ونهبها، وظلَّ فيها يمارس أعماله الوحشيَّة لمـدَّة ثمانية عشر يومًا، وخرج منها بعد أن نهبـوا المدينة، وتوجهوا إلى الحويزة حيث مقر إمارته[٢].

ثانيًا: نهاية دولة القرة قوينلو

أثارت هزيمة القرة قوينلو والدمار الذي ألحقه المشعشون بالحِلَّة والنجف وكربلاء حاكم القرة قوينلو في شيراز بيربوداق، فطلب من سيدي عليّ أحد قادته في بغداد بإعادة السـيطرة على المدينة وإعمارها، وكانت القبائل قد اسـتغلَّت الفراغ الذي أحدثه هجوم المشعشـعين، وفرضت سـيطرتها على المدينة، فدخلها سـيدي عليّ عـام ٨٥٩هـ، وأعاد سيطرة القرة قوينلو عليها[٣].

وفي عـام ٨٦١هـ، قُتـل المـولى عـليّ في أحـد المعـارك، وعاد نفـوذ والـده محمَّد المشعشـعيّ وسـيطرته، وخـاض أيضًا عـددًا من المعـارك مع القـرة قوينلو، ثـمَّ توفِّي سـنة ٨٦٦هـ، إن اختلفـت الروايـات في تحديد تـارخ وفاته، ثـمَّ تولَّى حكـم الإمارة ابنـه محسـن المشعشـعيّ، الـذي اتَّخـذ واسـط مقـرًّا لحكمـه، ومنهـا أخـذ يعمل على التوسُّـع نحـو مـدن العـراق الأخرى، وقـد امتدَّ نفـوذه وسـلطته إلى مناطق واسـعة

(١) الغياثيّ، التاريخ الغياثيّ، ص ٣٠٩.
(٢) يوسف كركوش الحِلِّيّ، تاريخ الحِلَّة، ج١، ص١٣٢.
(٣) عبَّاس العزَّاوي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالَين، مج٣، ص١٤٨.

مـن عبَّـادان والبـصرة شرقًا، حتَّـى الأحسـاء والقطيف غربًـا، ومن بغداد شـمالًا إلى بنـدر عبَّـاس جنوبًا، ومـن بينها مدينـة الحِلَّة، التي اسـتمرَّت تحت سـيطرته حتَّى عام ٨٧٢هـ[١].

وبقيـت مدينة الحِلَّة محطَّ صراع، وأرض نزاع بين المشعشـعين والقرة قوينلو حتَّى قرَّر والي بغداد محمَّد الطواشي اسـتعادة السـيطرة على مدينة الحِلَّة، فجهَّز حملة عسكريَّة لإخـراج المشعشـعين منهـا نهاية سـنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧، بعـد أن تمكَّن مـن إبعاد خطر دولة الأق قويلو بقيادة حسـن الطويل بشـكل مؤقَّت، فتمكَّن من هزيمة المولى محسـن المشعشـعي لتعود المدينة لسـيطرة القـرة قوينلو، وترك عليها صهره حسـين عليّ زينل، الـذي آل حكم القـرة قوينلو إليه بعد وفاة محمَّد الطواشيّ، فترك الحِلَّة تحت حكم شـاه عليّ بن قراموس، الذي حاول الاستقلال بالحِلَّة، لكن الحكومة في بغداد أرسلت جيشًا لاستعادة السيطرة على المدينة، فتمكَّن من دخولها سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م، وقتل حاكمها شاه عليّ بن قراموس[٢].

مُنِحـت إدارة الحِلَّـة بعـد قتل شـاه عـليّ إلى الحاكم القـرة قوينلي الشـاه منصور، الذي اتَّصف بظلمه وسـوء إدارته للمدينة، وتعسُّـفه مع الكثيرين مـن أبنائها، والذي أصبـح تحت حكمة بغداد والحِلَّة سـنة ٨٧٤هـ[٣]، وفي هذه السـنة تمكَّنت قوات الآق قوينلو من احتلال بغداد، وهي إمارة تركمانيَّة تأسَّسـت على يد الشـيخ حسـن الطويل (أوزون حسـن) (٨٢٨-٨٨٢هـ/ ١٤٢٤-١٤٧٨م) ابـن عليّ بك بن قـره عثمان، إذ تمكَّن حسـن الطويل من توسـيع إمارته نحو الشرق، وقضى على دولة القرة قوينلو سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، واتَّخذ من تبريز عاصمة لدولته، ثمَّ مدَّ نفوذه إلى العراق والخليج،

(١) جاسم حسن شبَّر، تاريخ المشعشعين، ص٧٦-٧٧.
(٢) عبَّاس العزَّاوي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالَين، مج٣، ص١٨٦-١٨٧.
(٣) الغياثيّ، التاريخ الغياثيّ، ص٣٣٤-٣٣٦.

وتمكَّن من احتلال بغداد بلا قتال سـنة ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م، بعد أن حاصرها لمدَّة قصيرة، ومنح حكمها إلى ولده منصور بيك الذي دخل المدينة في يوم الاثنين ١٤ جمادى الآخرة سنة ٨٧٤هـ[١].

(١) فاطمة حسين فاضل المفرجي، الحِلَّة في عهد الآق قوينلو، ص٢٦٥-٢٦٦.

الخاتمة

١. عانت مدينة الحِلَّة من سلسلة من الصراعات والنزاعات بين عدَّة إمارات حكمت العراق.

٢. بقيت مدينة الحِلَّة مسرحًا للصراع بين الجلائريِّين والقرة قوينلو عدَّة سنوات، عانت فيها من نتائج هذا الصراع السياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة.

٣. أثَّرت الأوضاع السياسيَّة والهجمات المسلَّحة في مدينة الحِلَّة، وعانى سكَّانها من هذه الهجمات، وكثيرًا ما اضطرُّوا لترك مدينتهم هربًا من الحملات العسكريَّة، وانتقام الأطراف المتنازعة.

٤. تردَّت الأحوال الاقتصاديَّة في المدينة؛ نتيجة لكثرة الصراعات في هذه المدَّة.

٥. برغم ما مرَّ بالمدينة من تردِّي في أوضاعها العامَّة بقيت الحركة العلميَّة مزدهرة، وكان لعلماء الحِلَّة، ومقدرتهم العلميَّة، وفي مقدِّمتهم الشيخ ابن فهد الحِلِّيّ الأثر الكبير في تشيُّع القرة قوينلو.

٦. لم يشهد عهد القرة قوينلو، لاسيما في مدينة الحِلَّة، تطوُّرًا في المجالات العمرانيَّة أو الاقتصاديَّة أو غيرها، ولعلَّ سبب ذلك يعود إلى انعدام الاستقرار السياسيّ، وكثرة الحروب بين القرة قوينلو، والإمارات المجاورة.

المصادر

١. ابن العماد الحنبليّ، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت،١٩٩٤م، ج٧.

٢. ابن حجر العسقلانيّ، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن عليّ، أنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة لجنة إحياء التراث العربيّ الإسلاميّ، القاهرة، ١٩٩٨م، ج٣.

٣. بحرية أوج، النساء الحاكمات في التاريخ، ترجمة: إبراهيم الداقوقي، مطبعة السعدون، بغداد، ١٩٧٣م.

٤. بيداء عليوي هادي، الحِلَّة في العهد الجلائريّ (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م-٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كليَّة التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٩.

٥. جاسم حسن شبَّر، تاريخ المشعشعين وتراجم أعلامهم، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٦٥.

٦. جاسم حسين مهاوي، تاريخ الغزو التيموريّ للعراق والشام وآثاره السياسيَّة (١٣٨٥-١٤٠٥م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٦م.

٧. جميل أبو طبيخ، مذكِّرات بغداد- مراجعة في تاريخ الصراع الطائفيّ

والعنصريّ ٦٧٢م-٢٠٠٧م، المؤسَّسة العربيَّة للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ٢٠٠٨.

٨. السخاوي، شمس الدين محمَّد بن عبد الرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مطبعة دار الجيل، بيروت،١٩٩٢م، ج٦.

٩. شعبان طرطور، الدولة الجلائريَّة، دار الهداية، سوهاج، ١٩٨٥.

١٠. عبَّاس العزَّاوي، موسوعة تاريخ العراق بين احتلالَين، الدار العربيَّة للموسوعات، بغداد، ٢٠٠٤، مج٣.

١١. عبد الأمير الرفيعيّ، العراق بين سقوط الدولة العبَّاسيَّة وسقوط الدولة العثمانيَّة، مكتبة بستان المعرفة، بغداد، ٢٠١٠.

١٢. علاء محمود قدَّاوي، تاريخ العراق في عهد القرة قوينلو والآق قوينلو (٨١٤-٩١٤هـ/ ١٤١١-١٥٠٨م)، دار غيداء، عمان، ٢٠١٢.

١٣. عليّ شاكر عليّ، العراق والغزو القرة قوينلو في القرن الخامس عشر، مجلَّة المؤرِّخ العربيّ، العدد ٢٨، السنة ١١، بغداد، ١٩٨٦.

١٤. الغياثيّ، عبد الله بن فتح الله، التاريخ الغياثي، تحقيق: طارق الحمدانيّ، مطبعة أسعد، بغداد،١٩٧٥م.

١٥. فاطمة حسين فاضل المفرجي، الحِلَّة في عهد الآق قوينلو (١٤٦٨-١٥٠٨)، مجلَّة الملويَّة للدراسات الآثاريَّة والتاريخيَّة، المجلَّد٤، العدد ٨، السنة الرابعة، حزيران، ٢٠١٧ م.

١٦. محسن الأمين، أعيان الشيعة، تحقيق: حسن الأمين، ج٦، دار التعارف، بيروت، د.ت، ج٣.

١٧. المقريزيّ، أبو العبَّاس أحمد بن عليّ بن عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمَّد عبد القادر عطا، مطبعة دار الكتب العلميَّة، بيروت، ١٩٩٧م، ج٤.

١٨. يوسف كاظم جغيل، الحياة الفكريَّة في الحِلَّة خلال القرن التاسع الهجريّ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كليَّة التربية، جامعة القادسيَّة، ٢٠٠٨م.

١٩. يوسف كاظم جغيل، الحياة الفكريَّة في الحِلَّة خلال القرن السابع الهجريّ/ الخامس عشر الميلادي، الحِلَّة، مطبعة دار الصادق، ط١، ٢٠١٠م.

٢٠. يوسف كركوش، تاريخ الحِلَّة، المكتبة الحيدريَّة، النجف الأشرف، ١٤٣٠هـ، ج١.

٢١. يونس عبَّاس نعمة، وميثاق عبيِّس حسين، الأوضاع السياسيَّة والاقتصاديَّة للحِلَّة في عهد الدولة التركمانيَّة (٨١٤هـ/ ١٤١١م-٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)، مجلَّة مركز بابل للدراسات الإنسانيَّة، المجلَّد ٥، العدد ١.